عمل النساء الفلسطينيات الريفيات في فترة الاستعمار البريطاني :ما بين البعدين الاقتصادي والثقافي
"قرية البروة نموذجا"

لينا معاري، باحثة ومساعدة تدريس في معهد دراسات المرأة-جامعة بيرزيت

المادة التالية جزء من بحث مطول، تناول نشاط النساء الفلسطينيات الريفيات في مجال العمل في قرية البروة، والتحولات التي طرأت عليه بعد النكبة، أعدته الباحثة لينا معاري استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في معهد دراسات المرأة-جامعة بيرزيت. وقد تم، بحكم القيود المفروضة على حجم المجلة، حذف الجزء النظري والتاريخي والحواشي والمراجع من هذا الجزء من البحث، وأبقينا على الجزء الذي يشمل رواية أهل القرية (بلغتهم المحكية) لتاريخهم خلال فترة الاستعمار البريطاني.

مقدمة

تشكل هذه الدراسة محاولة لكتابة التاريخ الاجتماعي للنساء الفلسطينيات الريفيات من قرية البروة، بالتركيز على نشاطات العمل وأبعادها الاقتصادية والثقافية. ومن الواضح أن دراسة التاريخ الاجتماعي للنساء ونشاطات عملهن، لا تنفصل عن تاريخ المجتمع ككل، ولذا وجب موضعتها في السياق الاقتصادي والسياسي للمجتمع الفلسطيني الفلاحي آنذاك. اعتمد البحث على التاريخ الشفوي، من خلال مقابلات معمقة، تسرد من خلالها النساء والرجال الذين عاشوا في قرية البروة قبل عام 1948 تجاربهم الحياتية، وخصوصا نشاطات عمل الأسرة بشكل عام، ونشاطات النساء بشكل خاص خلال الفترة التي عاشوها في البروة. روايات هؤلاء الرجال والنساء تشكل المصدر الوحيد المتاح لكتابة التاريخ الاجتماعي للنساء الفلسطينيات الريفيات التابعات.

تمت المقابلات بين منتصف عام 2003 و منتصف عام 2004 في قرى: المكر، والجديدة، وكفر ياسيف، حيث قابلت عشرين فردا (عشرة رجال وعشر نساء)، جرت على حدة، في غرفة في بيت المُقابل أو في ساحة الدار، وأحيانا جرت مقابلة اثنين معا، الأمر الذي أغنى الحوار من خلال تتبع الذكريات المشتركة، وإثارة الجدل بين المقابلين. وجرى تسجيل جميع المقابلات ومن ثم تفريغها حرفيا. هذا ورغم أن البعض قد عكس صورة رومانسية عن الحياة في البروة، إلا أن آخرين تحدثوا أيضا عن صعوبة حياة الفلاحين في تلك الفترة. هذا وكانت مقارنة الوضع آنذاك بالوضع الحالي موضوعا حاضرا في

غالبية المقابلات.

تواجه منهجية البحث المتبعة، بعض الإشكاليات، أهمها أن المقابلات من خلال التسجيلات والتقارير التي تسجل لا تعطي صورة حقيقية عن الحياة الحية المعيشة بتركيبتها وشموليتها. كما يحمل تحويل روايات النساء والرجال الذين قابلتهم إلى بحث أكاديمي مكتوب في طياته إشكالية صياغة حياة النساء بصورة بعيدة عن نمط حياتهن الفعلي. ومن هنا يعتمد البحث بشكل رئيسي على نقل روايات الرجال والنساء كما جاءت على لسانهم/ن، كمحاولة لنقل أصواتهن بدقة، وإبقاء الجوانب التحليلية مفتوحة للنقاش....

تقع قرية البروة على بعد 9 كم شرقي مدينة عكا. وترتفع 60 مترا عن سطح البحر، وقد قامت أجزاء القرية الشرقية والشمالية والجنوبية على تلة صخرية، أما القسم الغربي فسهلي. يحد البروة من الجنوب وادي الحلزون الذي تصب مياهه في نهر النعامين. وتقع القرية على هضبة واسعة وعالية تشرف على سهل عكا. بلغت مساحة القرية 59 دونما، أما مساحة الأراضي التابعة لها فكانت 13,483دونماً، منها 3,031 دونما من الأراضي غير الزراعية، والباقي وهو 10,452 دونما، أراض زراعية يزرع فيها القمح والشعير والذرة والسمسم والبطيخ. ويكسو نحو 1,500 دونم من الأراضي أشجار الزيتون.و لم تتعد مساحة ما امتلكه الصهاينة من أراضي القرية في عام 1945 أكثر من 546 دونما، في حين كان الباقي للفلسطينيين العرب.وبلغ عدد سكان البروة في أواخر القرن التاسع عشر 755 نسمة، وأصبح في عام 1945 نحو 1,460 نسمة. غالبية سكان القرية كانت من المسلمين (حوالي 1330 نسمة عام 1945) وأقلية من المسيحيين (حوالي 130 نسمة عام 1945). اعتمد أهل البروة في معيشتهم على زراعة الحبوب والخضراوات وتربية المواشي والطرش على مختلف أنواعها، وكانوا يبيعون معظم منتجاتهم في سوق مدينة عكا.
اختلت القوات الصهيونية القرية يوم 1948/6/24، وطردوا سكانها ودمروها. وتشردت أسر البروة وانتشرت في مناطق مختلفة.

نماذج لأسر سكنت قرية البروة

يتبين من المقابلات مع الرجال والنساء الذين عاشوا في قرية البروة وجود تباين في نشاطات العمل حسب الوضع الاجتماعي والطبقي للأسرة. ويمكن الإشارة إلى ثلاثة مستويات اجتماعية في قرية البروة، اعتمادا على مساحة الأراضي التي تمتلكها الأسرة. هناك أسر ذات ملكية كبيرة، وأسر ذات

ملكية متوسطة، وأسر لا تملك أراضي. تحوي هذه الشرائح على نماذج كثيرة للأسر التي عاشت في القرية. بالتالي فان النشاطات الإنتاجية لأفراد الأسرة تختلف وفقا لمساحة الأراضي، بالإضافة إلى عوامل أخرى كتركيبة الأسرة المعيشية، وحجم القوى العاملة فيها، وكذلك حسب أجيال أفراد الأسرة.

تظهر الروايات التنوع في مساحة الأراضي المملوكة، وفي تركيبة الأسر المعيشية في البروة، من ناحية حجمها وأجيال أفرادها. هذا التنوع ينعكس على أدوار ونشاطات أفراد الأسرة. بالإضافة لذلك يبرز تأثير التحول في دورة حياة الأسرة والتغيرات التي تدخل على تركيبتها من حيث أجيال أفرادها وعددهم، والذي يتغير بفعل الزواج، إما باتجاه نقصان الأيدي العاملة عند زواج البنات، أو عمل الأبناء خارج القرية، أو باتجاه زيادة القوى العاملة من خلال زواج الأبناء.

يقول أبو سعود من مواليد عام 1915، وكان يبلغ الثالثة والثلاثين عاما عند النكبة:
"البروة كانت بلدا زراعية، وفيها مواشي، بقر وأغنام وماعز وجمال. كانت الناس تشتغل بالزراعة ورعاية المواشي، والبعض أصحاب وظايف، وكان في مخاتير.. الناس كانت ثلاث درجات، جزء عندهم ملكية كبيرة، جزء عندهم ملكية متوسطة أو صغيرة، وجزء ما بملكوا أراضي. اللي ملكيته صغيرة أو متوسطة كان يزرع أرضه، وبالإضافة كان يضمن أرض أو يزرع أرض على حصة. اللي ما عندوش أرض كان يشتغل عند اللي إلهم أراضي، نسوان ورجال كانوا يشتغلوا بالزراعة. إحنا كانت ملكيتنا متوسطة، كان عنا بيجي 120 دونم، ونوخد أرض على ضمان وعلى حصة، من أراضي الملاكين الكبار اللي ما كانوا يفلحوا أرضهم، متل الشيخ إبراهيم العكي من عكا، ودار بيضون، اللي كانوا يملكوا أراضي في البروة. كان إلهم وكلاء في البروة يوزعوا الأرض.. الضمان معناته انو نضمن الأرض بمبلغ معين. بذكر كنا نضمن الدونم بربع ليرة، والحصة معناها نزرع الأرض ونوخد جزء من المحصول.. قبل ثورة الـ 36 كنا كل العيلة نشتغل بالأرض، أهلي وخواتي التنتين وإخوتي التنين وأنا، وبعد ما خواتي اتجوزوا وإخوتي الاتنين توظفوا في البوليس في حيفا وطوباس، عشت مع امي وأبوي. أهلي صاروا ختيارية، وصرت أنا المسئول عن الأرض. إحنا لأنو منتوجنا كثير، كنا نوخد اللي نحتاجة من المنتوج والباقي بيجي تجار من عكا يشتروه. كل منتوج كان اله تجار، البطيخ مثلا اله تجار، بيجوا بوقت الموسم يشوفوا مئتاية البطيخ بالسهل، يسألوا الناطور عن صاحب الأرض وبيجوا عالبيت تيشترو منه. أما الفضلة من البيع كنا انزله إحنا على الدواب عالحسبة في عكا، ونبيعه هناك لتاجر. أنا بنفسي كنت أحمل البطيخ على الجمال وانزل على عكا".

أم غازي التي كانت تبلغ ست سنوات عند النكبة، تستحضر تفاصيل الحياة في البروة من أحاديث الكبار، تقول:

"أنا بعرف تفاصيل البروة من خراريف امي وأبوي وعمتي وعمي. كنت عايشة مع امي وأبوي وأختي، كان عنا كتير أراضي، حوالي 170 دونم.. غير الأرض اللي بقولولها العريض (العريض هو جبل يقع شمال قرية البروة)، حياة عمي ومرت عمي حكو انو كان حوالي 450 دونم، لدرجة انو لما طلع ممثل المندوب السامي بدو يسجل الأراضي بأسماء أصحابها، قالوا لأهل البلد، اللي بحب يساعد دار حمدان يطلع عالجبل يساعدهم ويحكر، يعني يزرع دالية أو رمانه أو خروبه، لأنه كانوا الإنجليز الأرض اللي بلاقوها مزروعة يسجلوها، وفعلا طلعت الناس، على حكي الكبار، واللي قدر يساعد ساعد.. أرضنا كانت كبيرة كنا زارعين قمح وشعير وذرة وزيتون وتين، وكان عنا جمال وبقر وطرش".

أبو عفيف، من مواليد عام 1929، كان يبلغ التاسعة عشرة من العمر عند النكبة، وكان ينتمي لأسرة يقول إنها تمتلك مساحة كبيرة من الأرض:

"كان عنا فدانين اتنين، اللي كان عنده فدانين اتنين معناته انو أرضياته بحرزو، وبكون فلاح كبير، جوز البقر كانوا يسموهن فدان، لأنو جوز البقر بحرثوا مساحة فدان، يعني بدك تقولي كان عنا بيجي 80 دونم سهلية، كنا نزرعها قمح وشعير وذره، وآخر فترة زرعنا سمسم، الحناوي والمصل، هادا بالإضافة لأرض أخرى، وعرية، كنا نملكها مزروعة زيتون.. لأنه إخوتي كانوا صغار وامي ما تلحق شغل البيت، كنا مشغلين عنا حراث وقطروز، اللي كان يطلع البقر ويسرح فيهم، يعني كانو أبوي وحراث وقطروز يشتغلو بالأرض، بس في المواسم في وقت القطيفة كان ييجي على البروة رجال ونساء من كل القرى، وحتى من جنوب لبنان، كان كل رجل يجيب منجل ويقطف، وإحنا كنا نشغل من هادول في الموسم، في موسم الزيتون كان الكل ينزل وكانوا يستأجروا جوالات.. لأنه أرضنا كبيرة كنا نوخد مونتنا من المنتوج، والباقي ييجو تجار من عكا والناصرة ويحملوا بالسيارات".

الحاجة ثريا، من مواليد عام 1930، وكانت تبلغ الثامنة عشرة عند النكبة، كانت ابنة أسرة مقتدرة نسبيا، حيث كان والدها "زعيم عيلة دار الكيال" (عائلة كيال هي أكبر عائلات قرية البروة). وكان منزل الأسرة يضم مضافة كبيرة مليئة بالحصر للضيوف. ملكت أسرة الحجة ثريا أراضي واسعة، وحوالي ثلاثمائة رأس ماعز، لكن الأسرة لم تعمل بالزراعة. كان والدها يضمن الأرض محاصصة لمزارعين من القرية:

" أبوي ما زرعش هو أرضه، لأنه مافش عنده عيله كبيرة، والفلاحة بدها الحراث والدارس وبدها كتير

شغل، ولانه عيلتنا صغيرة وإخوتي صغار وما كان عنا كتاين يساعدونا فأبوي كان يضمن الأرض.. وكان يشغل راعي للمواشي. بعدين أبوي كان قائد في ثورة ال36 وكان عضو اللجنة القومية في البلد، يروح كتير على الشام وبيروت.. وامي ما اشتغلت بالزراعة، كانت ربة بيت، تعجن وتخبز وتطبخ للضيوف اللي دايما عنا". تستذكر الحجة ثريا المضافة:" الاوضة الشمالية من البيت كانت المضافة، هاي بقت خارج الدار شوية، وكانت كلها مفروشة بالحصر، ونودي عليها الأكل والشرب". هذا ويضيف أبو سعود معلومات عن وظيفة المضافة أو الديوان:" إحنا كان عنا ديوان وكان يضل مفتوح للضيوف، ويصير فيه تداول للأخبار وللي بصير في البلاد التانية. ييجي مثلا واحد من نحف، ويقول شو صار بنحف، صارت طوشة أو عملية مثلا. بتعرفي انه ما كان وقتها مواصلات زي اليوم، وحواديت البلاد كانت تنتقل من خلال الدواوين".

أبو إسماعيل من مواليد عام 1922، حيث عاش ستة وعشرين عاما في البروة قبل النكبة، كان ينتمي لأسرة فلاحين كما يقول:
"إحنا من البروة، كنا ساكنين في الحارة الشرقية، غالبية بيوت البروة كان في عندها بير صغير للمواشي، تبقى في المي شحيحة، فكانت الناس تجيب مي من العينين، من عين المغير وعين الغربي، بعض البيوت كان عندها حمارة تملي عليها المي، والنساء تحمل عروسها الجرار وتعبي من عيون المي.. صنعتنا كانت فلاحين، كنا ملاكين أراضي زي غالبية أهل البروة. كان عنا أرض سهلية وأرض وعرية، كان عنا حوالي 250 دونم في مواقع مختلفة.. ما كان في آلات زراعية في البروة، ما كان في ولا تراكتور، لا بالبروة ولا بغير البروة، أنا فريت فلسطين كلياتها بزمان الإنجليز وبعرفها، كان في عند اليهود تراكتورات صغيرة وبسيطة. ولا كان في سيارات، في الفترة الأخيرة أبو أحمد سعد جاب سيارة وكانت الوحيدة في البلد.. أنا ما وعيت على امي وأبوي، توفوا وأنا في جيل حوالي خمس سنوات، وعشت مع إخوتي، كنا أربع إخوان وأخت، أنا كنت الصغير بإخوتي.. كل العيلة كانت تشتغل بالأرض خصوصا في وقت الحصيدة. وأخوي الكبير كان المشرف الأول على الأرض ويدير شؤونها بعد وفاة أهلي، أنا اشتغلت كمان موظف في البوليس الإنجليزي. لما كبرنا وإخوتي تزوجوا، كبرت العيلة والأرض ما عادت تكفينا، فصرنا نضمن ارض من دار بيضون: من ملاكين الأراضي في البروة. كان في عنا مواشي، كانت أختي ونسوان إخوتي تحلبها لنستهلكها والباقي نوزعه عالقرايب والجيران والأصحاب. إجمالا الفلاح العربي كانت حياته صعبة كتير، بس كان مستور الحال، كان في تعاون بين الفلاحين، وفي المواسم كان الفلاح يتبحبح".

أم إسماعيل، من مواليد عام 1936، وقد عاشت في البروة اثني عشر عاما قبل النكبة:

" كنت عايشة بالبروة أنا وأبوي وامي، كنا أختين وأخ. اخوي كان اكبر مني أنا وأختي بكتير، امي جابت أخوي الكبير وصارت بعدين تجيب ولاد وبنات ويموتوا، أهلي جوزوا أخوي وهو صغير منشان يخلف لأنه هني ما عاشلهنش ولاد. قعدت مرت اخوي أربع سنين لحبلت، بعد ما خلفت مرت أخوي، امي حبلت وجابتني أنا، وبعدين أختي اللي أصغر مني، فانا وأختي كنا صغار ودلوعات وما اشتغلنا بالسهل. أبوي كان إمام البلد وأخوي اله أربع ولاد وثلاث بنات، وكانوا ساكنين معنا. دور أعمامي كانت قريبة من دارنا. كان عنا أرض مبحبحة وكان يشتغل فيها أبوي وأخوي ومرت أخوي. امي كانت مرة كبيرة وما تروحش عالفلاحة. أنا كنت صغيرة وأضل بالبيت احمل ولاد أخوي. كان عنا بير جنب البيت، وبقيت أروح مع الملايات أجيب مي، كان عنا حمارة وكنت أملي عليها. كان عنا كتير مواشي وكانت امي ومرت أخوي تطعمها وتحلبها. وبقت امي تعمل لبنه وجبنه وسمنه. ومرت اخوي لأنها بقت صبية وقوية، كانت تنزل عالسهل كل يوم".

أم أحمد، التي تقدر عمرها بالاثنين والعشرين عاما، حسب ما أخبرتها خالتها، عند النكبة، عاشت في قرية البروة مع أسرتها الأصلية، ومن ثم انتقلت إلى أسرة زوجها، الذي كان ابن عمها. تصف أم احمد حياتها في أسرتها الأصلية:

" أنا كنت عايشة مع امي وأبوي، وكنا أربع بنات. ما اليش إخوة صبيان، أهلي أجاهم أربع صبيان وماتوا. كانوا الولاد يموتوا والبنات يضلوا. كان عنا أرض، بس أبوي لأنو ما كانش عنده ولاد كان يعطيها لحدا يزرعها عضمان. بس عند دار عمي هناك الزرع والقلع. أبوي كان ختيار وما كان يزرع ويفلح كتير، وباع شقفة أرض من اللي النا، كانت مزروعة زيتون، وصار يصرف علينا منها. لما كبرنا أنا وإخوتي صرنا نشتغل بالأرض ونصرف على حالنا، اشترينا قطعة أرض، حوالي 15 دونم واشتغلنا فيها، أنا واخواتي وأبوي وامي، سنسلناها بأيدينا وزرعناها لوز ودوالي ورمان وزيتون وعدس..إحنا ما كان عنا دواب، دار عمي كانوا يحرثولنا أرضنا ببقراتهم. المنتوج اللي كان يطلع من الأرض كنا نستهلكه إحنا، لا بعنا ولا شرينا، دار عمي اللي كانوا يبيعوا. دار عمي كانت أرضهم كبيرة، كان عندهم 13 شقفة أرض. مرت عمي ما الهاش إخوة، مات أبوها وأمها وما ضلش حدا من ذكرتها، وهالأرضيات اللي لأبوها اخدتهم هي، وكان لعمي أرض كمان وصاروا يفلحوها". أما عن حياة أم احمد بعد زواجها من ابن عمها، فتقول:" بعد ما تزوجت ابن عمي سكنت معهم بيجي أكتر من سنتين، وبعدين بنينا اوضة لحال. زوجي كان اله اخوين، كان اله أخوات ماتوا وهني صغار، وكان اله أخت متزوجة وماتت، ابنها عاش مع أبوه لحد ما تزوج، وبعد ما مات أبو، جابتوا مرت عمي وربته هي. عمي، أبو زوجي كان متوفي قبل ما تتزوج. إخوة زوجي كمان تزوجو، وصرنا كلنا مرت عمي وزوجي وإخوته والكناين نشتغل بالأرض. كنا

نشتغل وإحنا مبسوطين كتير، كانت الغناني والزغاريد والقيامة قايمة، لما كنا نقعد نحصد القمح أو نقلع الحمص أو نقطع البطيخ أو نغمر الذرة، كانت تقوم الغناني والزغاريد. كنا نحصد القمح بأيدينا، ما كان في مياكن وقتها. كنا نبيع من اللي يطلع من الأرض، كان ييجو تجار يحملوا بالأوتومبيلات، والباقي نبيعه لتجار في السوق في عكا".

7

الحاج احمد، من مواليد عام 1936، وكان يبلغ الثانية عشرة عند النكبة، أخبرني عن حياته في البروة:

" كنت عايش مع امي وأبوي وإخوتي، كنا أربع إخوة وأربع خوات، كنا عايشين في بيت لحالنا، كنا نعيش من الفلاحة، كان عنا سهل، وكان عنا وعر، السهل كنا نزرعوا قمح وبطيخ وذرة، والوعر كنا زارعينه عنب وتين وزيتون..عنا وراق طابو مسجل فيها 80 دونم بالسهل، هاي طبعا غير الوعر..كان عنا اكتفاء ذاتي من الأرض وكنا نبيع لتجار من عكا وحيفا.. امي وأبوي وأنا وإخوتي كنا نشتغل مع بعض بالأرض، أنا كنت أتعلم في مدرسة القرية".

تظهر النماذج السابقة التنوع في تركيبة الأسر، وحجمها، وأجيال أفرادها، ومقدار حيازتها للأرض. ويعد الأبناء والبنات مصدرا مهما للدخل، فحقيقة كون الزراعة زراعة بسيطة، تستخدم المحراث اليدوي والدواب، لعدم توافر الآلات الزراعية، تؤكد الحاجة لقوة عمل بشرية، خصوصا في المواسم. وقد شكلت النساء جزءا من قوة العمل هذه. بالتالي يصبح عدد الأبناء والبنات، وأجيال أفراد الأسرة، وقدرتهم على العمل، من العوامل المهمة المحددة للنشاط الإنتاجي للأسرة.

الأسر الكبيرة التي تملك قوة عمل، تقوم بفلاحة أرضها من خلال قوة العمل العائلية، وأحيانا تقوم الأسر بتوسيع مساحة الأرض المفلوحة من خلال أخذ أرض على نظام الحصة أو الضمان. الأسر التي لا تملك قوة عمل، تقوم إما بتشغيل حراث وقطروز وراع أو تقوم بتضمين أرضها إلى أسر أخرى.

تعيش الأسرمن منتوج الأرض والمواشي، فهي مكتفية ذاتيا، وفي حال وجود فائض من حاجتها، يتم بيعه للتجار الذين يأتون إلى القرية في المواسم، وما تبقى يتم نقله إلى سوق عكا لبيعه هناك.

النظام الاجتماعي القائم هو نظام خط النسب الأبوي ((patrilineal، حيث تنتقل المرأة بعد زواجها للعيش عند أسرة زوجها، وتصبح جزءا من قوة عمل أسرة الزوج، من هنا أهمية "الكنة" التي تشير إليها الحجة ثريا. بالنسبة للنساء نجد أن جيل المرأة وقوتها يحددان دورها الإنتاجي، فالمرأة الكبيرة

السن تقوم بالأعمال المنزلية ورعاية الأطفال، أما المرأة القوية فهناك حاجة لقوة عملها الإنتاجية في الفلاحة.

خلال دورة حياة الأسرة، تطرأ تحولات على نشاطات أفرادها. عندما يكبر الوالدان، يصبح الأخ الأكبر مسئولا عن إدارة الأرض، وفي حال غياب الأخوة للعمل خارج القرية، يتم الاعتماد على قوة العمل المتبقية. ومع ازدياد حجم الأسرة تصبح الأرض غير كافية، مما يضطر الأسرة إلى محاولة توسيع حيازتها من خلال نظام الضمان أو الحصة، أو من خلال عمل أحد أفراد الأسرة خارج القرية، خصوصا في الفترة التي بدأت تتناقص فيها مساحات الأراضي المتاحة نسبة لعدد السكان. ويؤثر زواج المرأة على نشاطاتها، نلحظ ذلك في التحول الذي طرأ على أم أحمد، بعد زواجها من ابن عمها، حيث تملك أسرته مساحات كبيرة من الأرض مقارنة بأسرتها الأصلية، الأمر الذي انعكس على أدوارها.

في فترة الاستعمار البريطاني أخذت طبقة أخذت طبقة الفلاحين التي لا تملك أراضي تزداد في البروة. عن كيفية تدبير أمورهم حدثني أبو عفيف:

"الناس اللي ما عندهمش أراضي كانوا يشتغلوا عند اللي الهم أراضي، حراثين، حصادين، وكانت كمان النسوان تشتغل جوالات مثلا.. وفي ناس من اللي ما عندهم أراضي كانوا يلقطوا قمح ويتبعروا زيتون، يعني يعتاشوا من ورا الفلاحين".

ويروي أبو سعود عن قيام أسرته بتشغيل مجموعة من الذين لا يملكون الأراضي:

" إحنا كنا مشغلين عنا في الأرض 7 رجال دائمين، حراثين ورعيان وقطروز وطراش يهتم بالخيل، وعلى المواسم كنا نشغل كمان نسوان. اللي كانوا يشتغلوا مزارعين في أرض الغير في منهم كان يوخد مصاري، مثلا يشتغل السنة بسبع ليرات، وفي يوخد حصة مثلا ربع المنتوج. إذا الفلاح قوي وبصحته وبشتغل عند ناس أرضهم كبيرة كان يطمع بالربع احسنله من مصاري".

وتضيف أم أحمد:

" اللي ما الهمش أراضي كانوا يشتغلوا شو ما كان، عنا إحنا بعد ما تزوجت والأرض كبيرة، رجال اشتغلوا ونسوان اشتغلوا عنا. يعني إذا بدنا نروح نغمر ذرة، أو بدنا نحرث، كنا نوخد معنا ناس ونعطيهم أجارهم".

يؤكد أبو إسماعيل قساوة حياة الفقراء في البروة، لكنه يشير إلى التعاطف والمساعدة التي كانوا

يحصلون عليها:
"كان في حب كبير وتعاطف مع العائلة الفقيرة، لأنه الحياة كانت قاسية معها. أنا بذكر كنا نزرع الخضرة وما نبيعها ولا نعرف الكيلو، أختي كانت تحملهم على الحمارة، وأحيانا على راسها بالقفة وتجيبهم عالبيت، ما ينوبناش إحنا بيتنا متل ما ينوب جيرانا اللي ما عندهومش، كنا نقسمهم".

نستنتج مما ذكر انه كان في البروة ترتيب يستطيع من خلاله من لا يملكون أراضي كسب الرزق، وذلك إما من خلال العمل الدائم، وعادة كان الرجال يعملون في العمل الدائم إما كحراثين، أو قطاريز، أو رعيان، عند الأسر التي تملك أراضي. أو من خلال العمل الموسمي، عند الحصاد، أو في موسم قطف الزيتون. وقد كانت النساء اللاتي لا يملكن أراضي تشارك في هذا النوع من العمل. من جهة أخرى كانت الكثير من الأسر التي لا تملك الأراضي، تعتاش على ما تجمعه من بقايا منتوج الأراضي، أو من خلال مساعدات يقدمها لها الميسورون على شكل منتوج.

كان في البروة أسر ترأسها نساء، بسبب وفاة الزوج. عن هذه الأسر تقدم أم سعود، من مواليد عام 1934، وكانت تبلغ الرابعة عشرة من العمر عند النكبة، نموذجا:
"أنا ما وعيت على أبوي، مات وهو عمري بجوز 4 سنين. عشت مع أمي وإخوتي. كنا أربع خوات وأخ، بالإضافة لأخ تاني من أبوي قبل ما يتزوج أمي. أمي كانت غريبة عن البلد، كانت من قرية سحماته، ترملت وهي صبية وربتنا. أمي أخدت عن أبوي أرض حوالي 10-12 دونم، وكان عنا شوية طرش. ما كانتش سهلة العيشة على اللي يموت جوزها. امي فلحت الأرض، ولأنها الأرض صغيرة وبتقضيش، كانت امي كمان تشتغل عند الفلاحين، تحلش أو تجول زيتون بالمواسم. أنا واخوتي كنا نساعد أمي بالشغل في الأرض، البنت من وهي القد صغيرة كانت تشتغل. أنا بذكر كنت أشتغل مع امي بالأرض من وعمري 6 سنين. أمي اضطرت تبيع جزء كبير من الطرش اللي عنا، وكان عنا 5-6 بقرات حلابات، كانت تحلب منهن وتبيع ولادهن العجول. منتوج الأرض كان قليل وانجأ يكفينا. أهل امي كانو أحيانا يساعدوها، يحنو عليها، تروح عندهم على سحماته وتجيب قمح وسميده وعدس، أهل امي كانوا فلاحين."

وتروي أم نايف من مواليد 1938، التي عاشت في قرية البروه مع والدتها ووالدها وأختيها وأخويها، عشر سنوات قبل نكبة 1948، قصة جدتها أم أمها التي ترملت وهي صغيرة:
" ستي، أم امي أصلها من قرية سحماته، كانت متزوجة وعايشة مع جوزها في أبو سنان، وإلها ولدين وبنتين صغار، لما مات زوجها، أجت هي وولادها على البروة، ما راحت عند أهلها على سحماته لأنو ما

كان في إمكانيات شغل في سحماته. في البروة كانت تعيش على تلقيط القمح من ورا الحصادين، يعني تلقط القمح اللي بظل ورا الحصادين، وفي موسم الزيتون كانت تشتغل في لم الزيتون عند اللي إلهم كروم زيتون وتوخد بالمقابل قمح وذرة".

أم العبد التي تقدر عمرها ثامنية عشر عاماً عند النكبة، كانت تعيش مع والدتها وأخيها وأختها في البروة:

" كنت عايشة مع أمي وأختي وأخوي، أبوي مات وأنا عمري 7 أشهر. أهلي خلفوا كتير قبلي، بس كانوا يموتوا. كنا نعيش على قطعة أرض من ورثة ابونا، الأرض ما كانت كبيرة ولا صغيرة. كان يشتغل فيها أمي واخوي وأختي، ولما كبرت صرت أشتغل معهم. كنا نزرع قمح وذرة وسمسم وشعير وعدس وفول وحمص، ونوخد منه مونتنا، ما كان عنا فضلة، وكان عنا بقرة حلابة وشوية معزة نعيش منهم.. على زمان أبوي وسيدي كانت الأرض كبيرة، وكانوا مشغلين فيها حراث وقطروز وراعي، كانت الأرض أكبر وكانت العيلة أكثر، وكان عندهم كمان طرش، بذكر كانوا يقولولي إنه طرش دار سيدي بقت لما تطلع الشلعة تغطي عين الشمس، بس لما تزوج أبوي واعمامي وتفرقوا، تقسمت الأرض وصار كل واحد ماله لحاله..".

وأخبرتني الحجة ثريا عن النساء الفقيرات والأرامل:

"النسوان اللي ما الهمش جيزان وما الهمش أراضي، كانوا يشتغلوا بالأجار، إحنا كنا نستاجر النسوان اللبانات يروحوا يودولنا اللبن على عكا".

تظهر نماذج الأسر التي ترأسها نساء، التي أتى ذكرها آنفا أن تلك النساء كن يعملن في قطعة الأرض الخاصة بهن إن وجدت مع أولادهن وبناتهن، وكذلك يقمن بالعمل عند الآخرين في المواسم، أو في عملية نقل اللبن إلى سوق عكا. هذا وقد كن يتلقين المساعدة من أسرهن الأصلية. وتظهر رواية أم نايف عن جدتها، التي انتقلت إلى قرية البروة بعد وفاة زوجها، وعدم رجوعها إلى قرية سحماته، مكان عيش أسرتها الأصلية لعدم توافر العمل هناك، المسؤولية التي كانت تتحملها النساء لإعالة أسرهن، والحاجة إلى إيجاد فرص عمل.

عملية البلترة

مع نقصان مساحات الأرض، واتساع حجم الأسر في فترة الاستعمار البريطاني، كان الكثير من أهالي البروة قد توقفوا عن العمل بالزراعة كعمل وحيد، أو العمل عند المزارعين مالكي الأراضي، وبدأوا

الانتقال إلى المدن للعمل في أعمال متاحة، خصوصا في مشاريع شق وتعبيد الطرق، أو في معسكرات الجيش البريطاني. وهكذا بدأت عملية تحول المزارعين إلى عمال، أي عملية البلترة.

عن عملية التحول إلى العمل المأجور، أخبرني أبو يسار:

"كان هناك ثلاثة مجالات رئيسية للعمل، أولا عملية شق الطرق من أجل استعمال الجيش البريطاني. شق الطرق كان يتم بطريقة بدائية، ما فش آلات وكان بحاجة إلى أيدي عاملة كثيرة. مجال العمل الثاني كان في مخيمات ومعسكرات الجيش، كانت هناك الشرطة. كان اشي يسموه بوليس civil يعني مدني، وفي بوليس إضافي، الإضافي اللي هو بعده مش متركز بالشرطة ويشتغل كحارس، وفي ناس عملت في الخدمات داخل الجيش، تنظيف ونقل أشياء، فكانت ما يسمى بكامبات الجيش تستوعب عاملين بالإضافة لمن عمل في السلك الرسمي للشرطة برتب عالية. مجال ثالث للعمل كان في الميناء منذ عام 36 وفي الريفينري. إما المجال الإضافي للعمل فهو الوظائف الحكومية والمصالح العامة، بس هاي كان الطلب عليها كثير، وكان الدخول إلى هاي الوظائف بالواسطة، ولكن كان صار في نوع من المجال المفتوح انه الناس تحاول انه تجد عمل من هاي العملية.. كان إيجاد وظيفة لأحد أبناء الأسرة مصدرا للبهجة والفرح. أذكر حضوري احتفال أسري بمناسبة إيجاد احد أبناء الأسرة كعامل في فباريكة الشحاط (مصنع لعيدان الثقاب) في عكا".

عن انتقاله بين الأعمال المختلفة أخبرني أبو عفيف:

"كان في كتير من عنا من البروة يشتغلوا عند الإنجليز، اشي بوليس إضافي يعني مؤقت، اشي اشتغل بالحراسة أو التنظيف أو الطبخ.. حياة عمي توفيق انتقل للناصرة واشتغل في البوليس، وأنا انتقلت على حيفا واشتغلت بالنافية.. بعد الحرب العالمية التانية، الإنجليز فتحوا للعائلات اللي كانوا بشتغلوا موظفين في الجيش البريطاني كانتينات أسمها النافية، زي family shop، اشتغلت فيها مدة وعملت مشاكل وبعدها انتقلت من شغلة لشغلة، لحد ما صرت أوزع مؤن لكمبات الجيش.. كنت أساعد أبوي بالأرض بالبروة في المواسم، بس الشغل برة أربح وأريح".

أما أبو إسماعيل فيتذكر:

" في البروة أنا كنت أشتغل في البوليس الإنجليزي، وكان عندي رتبة. بقى اللي يشد عمره عن العشرين في البروة يتوجه على الأشغال في الشوارع وغيره. أنا اشتغلت في البوليس الإنجليزي من عام 1942، في

قسم السجون. واخوي كان يشتغل أشغال كثيرة حول القرية، تزفيت شوارع وغيره".
وأخبرتني أم احمد عن أقارب زوجها:
"ابن أخته لجوزي اشتغل بالبوليس واشتغل كمان بالريفينري (مصنع تكرير البترول في حيفا)".

كما حدثتني أم العبد عن أخيها:
" بتالي المدة وإحنا بالبروة، قبل ما نطلع بأربع أو خمس سنين، اخوي صار يشتغل بالريفينري، لما كبرت العيلة بعد ما اخوي تزوج، وبطلت الفلاحة تكفي راح يشتغل بالريفينري، كانت كتير ناس في حينها من البروة بلشت تشتغل بالريفينري وفي المصانع بريت البلد..".

هناك واقعة شهيرة برويها أهل البروة الذين عملوا في الريفينري، عن معركة وقعت بين العمال العرب واليهود الذين كانوا يعملون في مصافي البترول في حيفا، عند بدء الصدامات في أوائل عام 1948، التي سقط خلالها عدد كبير من العمال من الطرفين. ويتفاخر أهل البروة لكون العمال العرب قد تغلبوا على العمال اليهود، وعلى الإنجليز الذين ناصروهم. الأمر الذي يشير إلى توتر العلاقات بين العمال العرب واليهود في تلك الفترة، والى إدراك العمال العرب خطورة المشروع الصهيوني وتهديده لمصالحهم.

لقد ازدادت عملية البلترة، بفعل عوامل عدة، منها عدم وجود مساحات كافية من الأراضي، التي بدأت بالتركز في أيدي الملاك الكبار واليهود من جهة، ومن جهة أخرى فان ازدياد عدد السكان، أدى إلى نقص في الأراضي. مما أدى بالأسر إلى بعث ابن أو اكثر، للعمل خارج القرية، وفي حال الاحتياج لهم في الزراعية، فإنهم يستمرون في العمل في الفلاحة في فترة الموسم فقط. هذا ويصف البعض كأبي عفيف، العمل خارج إطار الفلاحة بأنه أكثر راحة وربحا.

يبدو أن عملية البلترة لم تقتصر على الرجال وإن كان حجمها أوسع لدى الرجال. عمل النساء كان ضروريا في أي عمل متاح، وليس فقط في الزراعة، حيث أخبرتني الحجة ثريا عن نساء كن يعملن في رصف الشارع القريب من البروة:
"لما الإنجليز فتحوا شارع صفد اللي بمر من جنب البروة، كان في وكيل ييجي على البروة ويوخد رجال ونسوان يشتغلوا في الشارع. بذكر كان يستأجر فوق العشرين تلاتين بنت يشتغلوا في زق الحجار، والشباب كانوا يكسروا الحجار عشان يعملوا صرار ويرصفوا الشارع. المسئول عن العمال والعاملات كان يقولوله الشاويش، هو اللي يجيب المصاري من الوكيل ويوزعها، كان الرجال والنسوان يسجلوا كل

يوم يشتغلوه ويقبضوا حسب أيام الشغل".

التقسيم الجنسي لنشاطات العمل

لقد كان هناك تقسيم شبه واضح لنشاطات عمل كل من النساء والرجال. كانت هناك نشاطات عمل خاصة بالرجال، ونشاطات عمل خاصة بالنساء، ونشاطات عمل مشتركة لكليهما. فالنساء مثلا لم يقمن بنشاطات حراثة الأرض وبذر البذور، التي كانت مصنفة على أنها أعمال الرجال. من جهة أخرى لم يقم الرجال عادة بالأعمال المنزلية كالطبخ والتنظيف أو جلب الحطب أو الماء من البئر الغربي أو بئر المغير.

عن تقسيم العمل أخبرني أبو عفيف:

"النسوان كانوا مسئولات عن إدارة الدار، التنضيف والطبخ، وكانوا في أعمال بقوموا فيها النسوان عادة مثلا جلب الماء والحطب، الاعتناء بالطرش، حلب البقر والمعزة وترويب اللبن، وكانوا النسوان يحملوا اللبن على راسهم وينزلوا يبيعوه لتاجر في عكا، النسوان كانوا يبقلو ويعشبوا، وفي أعمال يعملوها النسوان والرجال مع بعض، مثل الحصيدة ولم الزيتون في المواسم". وتؤكد أم نايف على هذا التقسيم بقولها:" الحراثة والزرع كان شغل الرجال. النسوان شغلها الحليشة والتعشيب وحلب المواشي، والنسوان والرجال بقوا ينزلوا مع بعض عالحصيدة، وبجد الزيتون كمان، بقا الكل رجال ونسوان وولاد ينزلوا بالموسم ويجولوا".

بالنسبة لجلب المياه تتذكر أم نايف كيف كانت تذهب على حمار دار عمها لجلب الماء:

" النسوان كانوا يحملوا الجرار والجلان على روسهن، إلا إذا كان عندهم حمار. إحنا كنا نوخد حمار دار عمي ونروح نعبي مي".

أما أم احمد فتقول:

" كنت أنا أروح أملي مي نقلة، وسلفتي تملي نقلة، الرجال ما كانوش يملوا، خطرات نوخد لحمار نحط عليه اشي بسموه مشتيل، من كل جهة تنكة وتروح الواحدة منا، وخطرات نروح الكل نملي على روسنا، كنا نروح ثلاثة أربعة مع بعض، والطريق تكون ملانه، ما ننقطعش شيلة، كله رايح يملي، اللي رايح واللي جاي. كان في زلمة يشتغل على البير الغربي اسمه رجا عبد الغني، كان سقا، وأنا زلمتي اشتغل عالبير أخرى بيجي سنتين".

عن تقسيم العمل يقول أبو يسار:
" الشغل الزراعي بحد ذاته يعني كما هو واقع وكما تطور الوضع في القرى، كان كل أبناء العائلة يعملون في الزراعة، كل في مهمة خاصة به. مثلاً عملية حرث الأرض قليل جداً أن تجد امرأة تأخذ الثيران والبقر وتنزل تحرث، لأنها شغلة صعبة جداً، بدك تمسك العود وترفعه وتنزله وحتى من ناحية طاقة صعبة. عملية جمع المحصول بما فيها الحصاد، وفي موسم الزيتون بما فيها كل الأعمال التي تتبع إعداد المحصول حتى يصبح صالحا للأكل والاستعمال، هناك مشاركة للنساء. عملية الحراثة والبذر يقوم بها زراع رجال، اما هم أنفسهم أصحاب الأرض أو حراثين ومستأجرين يقوموا بهذه العملية. لكن عملية تعشيب الأرض، وهي العملية التي تحدث عندما يخضر الزرع ويخالطه أشياء غريبة، مثلاً القمح كان يطلع فيه إشي اللي اسمه زيوان يقولوا بدنا نروح نتردن يعني واضح انه هاي العملية النساء كانت تقوم بها. النساء كانت تشارك في عملية الحصاد، الحصاد يتألف من شغلتين، أن تضرب في المنجل وتقص ثم أن تأتي وتربط وتجمع. الرجال والنساء كانوا هم اللي يحصدوا، ولكن جمع الغمر وإعداده للنقل كانت هاي من ادوار النساء. كل العائلة كانت تنزل حتى في بعض الأحيان الأولاد كمان كانوا ينزلوا ويساعدوا في هذه العملية، حتى يصل المنتوج إلى البيدر. على البيدر من يدرس الغلال على الخيل وعلى لوح الدراس النورج، معظمهم كانوا من الشباب اللي كانوا يقوموا بهاي العملية، بعدين كان يحصل الذراي يعني اللي يذري المنتوج، يعني فصل التبن والزوائد عن الحب، كان عمل رجالي، أما التبن اللي بطلع أنت بحاجة إله لأنه علف للمواشي، وكان في محلات اللي إسمها التبان يعني من ينقل هذه الأمور من البيدر حتى التبان أو إنك بدك تغربله عشان تفصل التراب وإلى آخره فالنساء كانت تساعد في هذه العملية. وهذا العمل مش بس كان عمل مشروع، إنما كانت الناس تتباهى به، وكان في نوع من التنافس انه قديش إنت أجاك قمح، صليبية القمح اللي عندك أكبر وإلى آخره، كذلك مثلاً لما بدك تقطع البطيخ، البطيخ بدك تزقه اما على الجمال أو على الحمير، وكان الرجال والنساء يقوموا بهالعملية. الموسم في البروة كان مهم جداً، مثلا موسم السمسم كان مشهور جداً، أنت بتجيبوا أخضر بتعمله ضمم وبترتبه على البيدر، وبتكون ساحات كبيرة وعندما يجف بدك تيجي تضربه. مثلاً الرجال هم اللي كانوا يعملوا هاي العملية، لكن أخد عيدان السمسم الفاضية عشان استعمالها للحطب فهاي كانت النساء هي اللي تيجي تغربله عشان تفصل بين الزوائد وتقوم بعملية التعباي، وبعدين تحمله على راسها، اللي ما فش عندهم دواب ينقله فالنساء كانت تقوم بالعملية. اذا عمل ومشاركة النساء كانت مشاركة جدية في هاي العملية".

وعن نشاطات عمل النساء يقول ابو سعود:
"النسوان كانت تعمل شو بلزم، عشابة، تردن، انكاشة، حليشة، تتبين، يعني يعبوا التبن على البيادر

وينقلوا على روسهن. وكانت النسوان تحلب كمان، وتروب اللبن وتنزل فيه على راسها عشان تبيعه في الحسبة بعكا، يعني تكون ماسكة لبان في السوق بتوديله اللبن. النسوان كانوا يشتغلوا بشكل دايم، والموجود في البيت بكون مسؤول عن الصغار. الختيارة اللي في البيت تدير بالها على الصغار، أو ان كان الها جيران أو أهل أو عيلة، بديروا بالهن عالصغار، أو الصغار يديروا بالهن على بعض. اللي قوية بتروح عالشغل. بالنسبة النا كان عنا عمة اسمها عمتي امينه، هادي ختيارة صارت وما تزوجت ظلت بنت، كانوا كنايها يجيبوا ولادهم ويحطوهم عندها لما ينزلوا على الشغل." ويضيف ابو سعود:" اللي كانوا فقراء كان ييجي ابوها لهالبنت ويقول ان صار عندك شغلة يابا ابعث للبنت بتيجي تشتغل معك، كان ابوها يدورلها على شغل يعني. ما كان عيب، هيك كان الواقع، تفتخر هي لما تلاقي شغلة. كان اللي بده يعمرله خشه يجيب واحدة تساعده، أو اذا بده يبحش بير أو ينقل اشي من محل لمحل يجيب بنات..إحنا كنا نستأجر لبانات يودوا اللبن على عكا، يومية اللبانه كانت قرشين ونص. اللي كان بدو يريح مرته كان يستأجر لبانات، عكا كانت بعيدة شي عشرة كيلو عن البروة والمشوار مش سهل. امي مثلا ما كان عندها وقت اتدشر البيت، كانت تعمل اكل للشغيلة والرعيان وللضيوف. إحنا ما كان في يوم نخلى من الضيوف لانو كان عنا ديوان".

تتذكر أم سعود نشاطات العمل التي كانت تقوم بها النساء:

" إحنا ما خصناش بالحراثة والبذر، بس لما يصير الموسم نروح نحلش العدس، الكرصنة للدواب، هادا بقوا يعملوه علف، نحصد قمح بالمنجل، قبل ما نزلت الحصادات. نزق التبن على روسنا للدواب ونخزنه."

كانت الأعمال المصنفة رجالية بحت، هي: الحراثة والبذر، والأعمال المصنفة نسائية بحت هي: الأعمال المنزلية، وجلب الماء والحطب. وفي عملية الحصاد، التي يشارك فيها النساء والرجال، كان تقسيم العمل أيضا في جميع مراحل الحصاد، كان الرجال والنساء يحصدون معا بالمنجل، والنساء تقوم بعملية التغمير ونقل المحصول.

لكن تقسيم نشاطات العمل لم يكن صارما، كما يتبين من المقابلات، إذ أحيانا كان الرجال يقومون بجلب الماء، أو جمع الحطب، وكما تقول أم زهير من مواليد عام 1935 وعاشت في البروة حوالي ثلاثة عشر عاما قبل النكبة:

"النسوان عادة هن المسئولات عن جلب الحطب، كانوا يقطعوا الحطب بالمنكوش، ومرات الزلام بقت تروح كمان تلم الحطب، كانت مرات تروح الوحدة هي وجوزها، بس قليل كانت الزلام تروح

تحطب". أما أبو إسماعيل فيقول:" المي كانت حسب الظروف النساء والأولاد تعبي مي، وأحيانا رجال، اما الزلمة ما كان يتعطل لشغلة المي، اذا عنده شغلة تاني يعملها". كما وأخبرتني أم احمد:"كان عنا بقر، كنت أنا أحلب، وجوزي يحلب، ومرت عمي تحلب، حسب الظروف".

تقسيم نشاطات العمل إذن لم يكن صارما، ونجد مرونة ومشاركة حتى في الأعمال المصنفة رجالية بحت أو نسائية بحت. وهناك نماذج لنساء من قرية البروة كانت تقوم بحراثة الأرض وبذر البذور. حدثتني أم احمد عن حماتها، والتي كانت زوجة عمها أيضا:

"أنا مرت عمي، اسمها فاطمة الزهراء إبراهيم الحجو، لما مات جوزها وكانوا ولادها صغار، هي اللي كانت تحرث الأرض على القلاب، وتستعمل البقر للحراثة.. وتمسك المذراي وتصير تذري مثل الزلمة.. وكان عندها فرس تركبها مثلها مثل الزلمة. بنص الليل تروح عالسهل وتروح علينا وإحنا قاعدين، وكانت كمان تنزل على عكا وتتعامل مع التجار. وأنا كمان صرت متلها وأقطع منها. كنت اخد معي خروش أو بطيخ أوتين أو صبر وأنزل على الحمارة أبيعه لتاجر في عكا".

هذا وتشير أم أحمد إلى أن جميع أهالي القرية كانوا يقدرون زوجة عمها.

القيمة المرتبطة بالمرأة وعملها

رغم عمل المرأة ومشاركتها الفاعلة لاقتصاد الأسرة، كانت هناك قيمة أعلى للذكور في ظل مجتمع البروة ذي السمة الذكورية. تتذكر أم زهير رواية رويت لها عن يوم مولدها:

" أنا ولدت يوم عرس محمد الطه، قالو لي انه يوم ما ولدت كان نازل على عكا تيشتري أغراض للعرس، قال لأهلي مالكم متجمعين، قالوله والله مرت خالك عم بتقاسي بدها تجيب، قالهم ان جابت ولد حلاوتكم علي وان جابت بنت والله ما بتذوقوه.. وراح على عكا ورجع لاقاني مشرفة وقالهم روحوا راحت عليكم".

من ناحية أخرى نجد آخرين لا يفرقون بين الذكر والأنثى، حيث حدثني أبو يسار عن والده:

" لما انولدت أختي فاطمة، أبوي جاب ملبس وطوفي يوزعها على النسوان والأولاد، وصارت النسوان تقوله، ليش بتفرق ملبس، ما عرفت انو أجت بنت، فاجابهن بعرف انها بنت وأنا ما بميز بين الولد والبنت".

بالإمكان لمس القيمة العالية لعمل النساء وتقدير إسهامهن في الإنتاج الزراعي الذي عبر عنه كل

من الرجال والنساء، بالذات إسهام النساء اللاتي ينتمين إلى أسر ذات ملكية متوسطة، والنساء اللاتي ينتمين إلى عائلات لا تملك أراضي. فعمل النساء الزراعي كان ذا أهمية بالغة لحياة الأسرة وبقائها، بالذات نتيجة للحاجة الاقتصادية لعملهن. وقد أشارت بعض النساء إلى أن هذا العمل لم يكن خياراً بل كان واجبا مفروضا أحيانا.

لقد حدثني أبو سعود حول أهمية عمل المرأة:

"النسوان والرجال كانوا يشتغلوا مع بعضهم.. كانت المرة توقف قدام الزلمة وتشتغل بإخلاص ومسؤولية.. ما كانت النسوان تشمئز من الشغل، مش متل اليوم".

أما أبو إسماعيل فيؤكد:

" شغل النسوان كان اله أهمية كبيرة، كانت شريكة بالحياة مية بالمية. شغل المرة ما كان عيب أبدا، بالعكس". وتؤكد أم العبد:" بقوا المرة والزلمة يشتغلوا بالأرض ايد واحدة، وكان عمل المرة مهم جدا والكل يقدره".

أما الحاج أحمد فيقول:

" شغل المرة كان اكتر من ضروري ومهم، كانت تتحمل عبء كبير، ومساهمتها كانت أساسية للأسرة".

تشير أم نايف إلى أن عمل المرأة في الحقل كان واجبا على المرأة القيام به:

" المرة كانت مجبورة تنزل عالشغل بخاطرها أو غصبا عنها بدها تنزل عالشغل، اذا هي ما اشتغلت ما في حدا يشتغللها، الرزق كان للعيلة كلها والمرة جزء من العيلة، الأرض كانت شركة لأبوي وعمي وكانوا يشتغلو فيها امي وأبوي وعمي ومرت عمي، واخوتي كمان الأكبر مني كانوا يساعدوا". وتقول أم سعود:" لما المرة فش عندها ولاد كانت مجبورة تنزل عالشغل، لما عندك ولد بدك تربي، هادا اشي تاني، اما لما مافش عندك ولاد بدك تروحي على الفلاحة.. المرة اللي عندها مين يقعد مع لولاد أو اللي ولادها كبرو شوي، ملزومة تنزل عالشغل، بدها تروح لانو بدها تعيش، وعند الفلاحين كل يوم في فلاحة.."

أما أم غازي فتروي أنه حتى المرأة التي عندها أطفال كانت تستمر في العمل في الحقل:

"والله بقت المرة توخد الولد في السرير، تحمله في السرير، هيك بعملوله خيمه من خيش وتحطه في الفي وتشتغل. شغل المره كان مهم، ولا يمكن الاستغناء عنه". ويؤكد أبو يسار استمرار المرأة في العمل، حتى في حالة وجود طفل صغير، من خلال الحادثة التالية:" لقد كانت ندبة في أنف امي، وسببها أن امها

اخذتها معها إلى الحقل، للم بيض الجراد اللي هجم على السهل عام 1915، وعندما وضعتها جانبا هجم عليها الجراد وتسبب لها في ندبة دائمة في الأنف".

تمثل الأقوال المقتبسة أعلاه من الرجال والنساء الذين عاشوا في قرية البروة القيمة العالية والتقدير الكبير لدور المرأة وإسهامها في اقتصاد الأسرة، الأمر الذي يتناقض مع القيمة المتدنية للإناث مقابل الذكور، كما جاءت في رواية أم زهير. هذا ويتماشى التقدير البالغ لعمل المرأة، الذي وصف كواجب إلزامي أحيانا على لسان أم نايف وأم سعود، مع مظاهر أخرى كعدم وجود قيود على حركة النساء، بالذات النساء العاملات.

حرية حركة المرأة

بالنسبة للفصل بين النساء والرجال، وحرية حركة المرأة، فواضح أنه بسبب الحاجة الماسة لعمل النساء في الزراعة، لم تكن هناك إمكانية للفصل بين النساء والرجال، أو السيطرة الصارمة على حركة المرأة، خصوصا في الأسر التي تعتمد على عمل المرأة في الزراعة.

عن حرية حركة النساء يقول أبو يسار:

"من الواضح أن أغلب عمل الفلاحات كان محصورا داخل البلد وداخل الأرض. لكن النساء اللي ما كنش عندهم أراضي وكانوا يشتغلوا، كانوا مستعدات يشتغلوا في أي شيء آخر، مثلا يروحوا على عكا لتوريد اللبن أو نقل خضروات. كانوا أهل البروة يوردوا العنب إلى الحسبة اللي في عكا، ما كان في كميات هائلة، يعني صحارتين أو ثلاثة يحطوهم على الحمار وينزلوهم، في كثير من الأحيان كانت نساء ترافق الدابة وتنزل المنتوج. أو اذا النسوان يكونوا محوشين بامية أو لوبياء زيادة من عندهم بدهم يبيعوها بالحسبة. أما أكثر إشي اللي كانوا ينزلوا لأجله النساء على عكا كان توريد اللبن، لانه اللبن بقدروش يحملوا على الحمار، بدك حدا اللي يحمله على راسه".

يؤكد أهل البروة غياب القيود الصارمة على حركة المرأة، أو فصل النساء عن الرجال الناتج عن أدوار ونشاطات النساء. فالنساء كانت تلتقي بالرجال على البئر، وفي سوق عكا عند نزولهن لتسويق منتجات المواشي من ألبان. تقول أم زهير: "المرة كانت تروح وين ما بدها، على المي وعلى الحطب، ما كان عيب ولا مشكلة".

كما حدثتني أم العبد: " بقت تنزل البنت مع ابن جيرانها عالأرض كانها نازلة مع اخوها".

عن لبس الحجاب الكامل تقول أم نايف:
" نسوان البلد ما كانوا يغطوا وجوههن، بس النسوان اللي ييجوا من عكا كانوا يغطوا وجوههن".
وتصف أم أحمد لباس النساء في البروة:
" بحياتنا ما فرعناش، كنا نلبس على راسنا يا حطة يا منديل. بالشغل نلبس فستانين، واحد تشكليه هيك وتشتغلي، ولما تروحي وتطلعي ترخيه وتروحي على دارك، بس ما كنا نغطي وجهنا زي نسوان عكا". وتضيف أم إسماعيل:" النسوان كانوا يلبسو تواب ويحطوا حطات على راسهن، هاي الحطات اللي الها شراشيب. ما كانت النساء تغطي وجوهها زي النساء في المدن". هذا ويحاول أبو إسماعيل تفسير ذلك بقوله:" المرأة في المدينة كانت متعلمة أكثر ومتأثرة من التعليم الديني. لما كانت تركيا مسيطرة هون، كانت تركيا دولة إسلامي، وكان من شعاراتها حجاب النساء. في القرى النساء كانوا يشتغلوا ويشاركوا في الحياة والشغل ومن الصعب إنو يغطوا وجوههن، نساء الفلاحين تاريخيا كان اسمهم الدهماء وهيك كان لباسهن".

نلحظ من المذكور أعلاه أن حركة المرأة كانت متاحة، طالما كانت في إطار أدوارها ونشاطاتها الإنتاجية، وبما أن النساء شاركن في العمل الإنتاجي، فان حركتهن كانت متاحة داخل البلد، وخارجها، حيث كانت النساء يقمن بنقل منتوجات زراعية ومنتوجات الألبان إلى عكا. وكان غياب غطاء الوجه المنتشر بين نساء المدن نابعا من أدوار النساء الريفيات ونشاطاتهن.

الانعكاسات المادية لعمل المرأة

رغم الأهمية البالغة لعمل المرأة، والقيمة والتقدير اللذين يعبر عنهما كل من الرجال والنساء لعمل المرأة، إلا أن هذا لم ينعكس ماديا في ملكيتها للمصادر والموارد. لم تكن الأراضي عادة تسجل بأسماء النساء، ولم تكن النساء تحصل على الإرث، وكما يقول أبو سعود:
"كانت تتنازل عن الإرث لإخوتها.. هي كانت تسامح فيه يعني.. إحنا لما تقسمت الأراضي وتسجلت وقت تسوية الأراضي بال 45، يوم ما أجو مساحين عالبروة، قسمنا الأرض بين الاخوة وما أنطينا اخواتنا، ما طالبوش، أو سامحوا، بعرفش". ويقول أبو إسماعيل:" والله يا بنتي كانت الواحدة عايشة مع اهلها والأرض الها، اذا بدها توخد ما فش حدا بمنعها، مثلا اختي كان طالعلها حصة وهي أوصت انه حصتها وميراثها لولاد أخوها".

تؤكد الأقوال السالفة، ما جاء في الأدبيات حول قيام النساء بالتنازل عن حصتهن في الميراث

من أجل الحفاظ على علاقة مع أسرتها الأصلية، وضمان دعمها ومساندتها لها في حالة وجود خلاف مع زوجها. مع ذلك تضيء أقوال أم العبد التالية، على أن الثقافة السائدة آنذاك لم تتح للبنت المطالبة بحقها في الميراث:

"على زماننا كانت البنت اذا بدها تحاسب اهلها وتاخذ ورثة عيب ويصير عليها معيار، يقولوا الناس شوفوا فلانه حاسبت أخوها واخدت حصة من اهلها".

لقد كانت بعض الحالات التي ترث فيها البنت أراضي والدها، خصوصا في الأسر التي لم يكن فيها أبناء ذكور. وكما تقول أم إسماعيل:

" بقت اللي ما الهاش اخوة، توخد رزق اهلها، يعني يكون الها ورثة وتورثه من ورا أهلها ويكون باسمها". وتؤكد أم العبد:" اللي ما الهاش اخوة كانت توخد، أما اللي الها اخوة فكان عيب انها تروح تحاسب اخوها".

بالإضافة لذلك عندما لا يملك العريس نقد كمهر كان يسجل قطعة أرض باسم العروس. عن هذه الحالات يروي أبو سعود:

" بهداك الوقت ما كان في مصاري مع الناس، ولما ما كان يتيسر مع العريس مصاري مهر للعروس كان يكتبلها شقفة ارض أو كرم زيتون باسمها، كان يسموه سداد رقبة، وتصير الأرض ملكها، حرة هي فيها وبتسجلها لاولادها". ويؤكد أبو إسماعيل على ذلك بقوله:"كان مثلا اذا العريس ما فش معه مصاري يكتب للعروس عرقين زيتون باسمها في موقع كذا أو ثلاث دنوم بموقع كذا، كسداد رقبة".

وأخبرني أبو يسار عن موضوع ملكية النساء:

" لم يكن هناك تقليد قائم أن ترث المرأة. المرأة تصبح مالكة للأرض في حالتين أو ثلاث فقط. عندما تكون البنت الوحيدة وفش ورثة، وإذا سجل لها صداق رقبة، صداق رقبة هو يعني بدل المهر، لما بده يتزوج واحده وفش عنده مهر، فيقول انه أنا مهرها بكتب لها صداق رقبة حبل أرض وبكتب يعني إلها ورقة. والحالة الأخيرة عندما يكون الأبناء مختلفين، فهي تاخد الأرض وهي اللي توزعها بينها وبين الأولاد، مثلا واحد عنده أولاد وتوفي واختلفوا الأولاد على الورثه، فكانت تيجي إذا كانت إمرأة قوية وقادرة تقول أنا اللي وارثة أبوكم وأنا اللي بدي أوزع الأرض بينكم، فبينما يتم التوزيع هي اللي تكون مسؤولة عن الأرض".

إذن، كانت المرأة تملك أرضاً، في حالات خاصة، عندما لا يوجد لها إخوة ذكور، أو من خلال المهر، الأمر الذي يشير إلى أن ملكية النساء لم تكن ممنوعة بتاتا، لكنها لم تكن محبذة ثقافيا وماديا. لا بد

من الإشارة هنا إلى أن السيطرة على المصادر لا تقاس فقط بالملكية المسجلة بل بإدارة الملكية، بالإضافة إلى عامل مهم آخر هو حرية استخدام الأرض حتى لو لم تكن مسجلة باسم المرأة، الأمر الذي كانت تتمتع به النساء كما أشار أبو إسماعيل

وكما تقول أم سعود: " بعد ما تزوجت صرت حاسه انو أرض زوجي هي أرضي وأرض ولادي للمستقبل".

كانت المرأة الفلاحة تتمتع بحق استخدام الأرض، وتشعر أنها ملكها، حتى وان لم تكن مسجلة باسمها. يظهر من حديث أبو سعود أن النساء لم تسيطر بشكل كامل على المصادر المادية النقدية، حيث يصف:

"النسوان اللي عندهم مواشي، كانوا مسئولات عن الحلب وتحضير اللبن وتنزيله على راسهن على عكا، لانه اللبن ما في إمكانية يتحمل على الدواب، وكان كل جمعة أو جمعتين ينزل الأب أو المسئول من البيت يحاسب اللبان، كل واحدة يكون معها دفتر يومي يتسجل فيه قديش اخد منها، شو الوزن وشو السعر، بس ما كانت هي تقبض، يعني اذا بدها تجيبلها عشر قروش ينطيها اذا طلبت ويسجل، ويقول لجوزها في اليوم الفولاني مرتك اخدت كذا".

من ناحية أخرى أخبرتني أم احمد:

"الي كان ينزل على عكا يبيع اشي لتاجر، كان يوخد المصاري، ان أروح أنا آخد المصاري، ان يروح جوزي يوخد المصاري، ان راح سلفي يوخد المصاري. كنت ان عايزة اشي من السوق أشتريه واللي يضل معي أروحه. اللي يفضل من المصاري كانت مرت عمي تشيله، واذا واحدة معتازة اشي تشتريلها هي".

كان للنساء إذن، حرية التصرف في الموارد المادية التي تصل إليهن، لكن بحدود الحاجة، ولم تكن سيطرة تامة.

خلاصة

هناك إشكالية في كيفية تناول الأبحاث والدراسات السابقة، موضوع المرأة والعمل في دول العالم الثالث، بالذات الدراسات الواقعة تحت تأثير الأفكار الاستشراقية، حول كون الدين والثقافة الإسلامية

هي العوامل الوحيدة التي تحدد مكانة ونشاطات النساء. هذه الدراسات تركز على فصل المرأة في المجال المنزلي-الخاص، كون الثقافة والعادات السائدة لا تسمح بعمل المرأة خارج المنزل. فهذه الدراسات تمت على نساء المدن من الطبقة الوسطى، اللاتي تميزت حياتهن بالفصل بين المجال العام والخاص حتى القرن العشرين، أما نساء الطبقة الفقيرة والنساء الريفيات فقد شاركن في سوق العمل بسبب الحاجة الاقتصادية التي اقتضت إسهامهن في اقتصاد الأسرة، لكن هناك نقص في الدراسات عن هذه الفئات.

تسهم هذه الدراسة في الأدبيات التي تحاول سد الفراغ في الدراسات حول الحياة الاجتماعية للنساء الريفيات وإسهامهن في اقتصاد الأسرة وتظهر أن النساء في قرية البروة، في فترة الاستعمار البريطاني كانت تشكل إضافة إلى الرجل عمادا مهما للأسرة. كانت النساء الفلاحات تقوم بأدوار إنتاجية مهمة في الاقتصاد الزراعي في البروة. وذلك في سياق تقسيم عمل حسب الجنس، فالنساء كن يقمن بنشاطات محددة والرجال كانوا يقومون بنشاطات أخرى، لكن المقابلات مع الرجال والنساء من قرية البروة، تظهر وجود مرونة في تقسيم العمل، وقيام النساء أحيانا بأدوار تعتبر أدوار الرجال، كحراثة الأرض.

لقد تأثر النشاط الإنتاجي للمرأة بطبقتها الاجتماعية التي انعكست في حجم حيازة الأرض، بالإضافة لعوامل أخرى كتركيبة الأسرة المعيشية وحجمها، وأجيال أفرادها. إن نساء الطبقة العليا، التي تمتلك حيازة واسعة للأرض، لم يقمن بنشاطات إنتاجية، بل اقتصر دورهن على المجال المنزلي، أما نساء الأسر ذات الملكية المتوسطة والصغيرة، ونساء الأسر التي لا تملك الأراضي فقد قمن بأدوار إنتاجية مهمة في الزراعة وتربية المواشي واستخراج منتجاتها وتسويقها، بالإضافة إلى العمل بأجر في مشاريع شق الطرق.

لم يكن عمل المرأة عيبا، بل كان هناك تقدير عال لنشاطات المرأة الإنتاجية وإسهامها في اقتصاد الأسرة من الرجال والنساء. لقد انعكس إسهام المرأة على جوانب مهمة من حياة النساء، كحرية الحركة التي تمتعت بها النساء الفلاحات في سياق قيامهن بنشاطاتهن، منها: الذهاب إلى البئر لجلب الماء، أو جلب الحطب، أو ذهاب النساء إلى عكا يحملن على رؤوسهن الحليب لبيعه إلى تاجر عكي. من جهة أخرى لم ينعكس الإسهام المهم للنساء في الاقتصاد على ملكيتهن للأراضي، حيث لم تملك النساء الأراضي، أو ترث حقها، إلا في حالات خاصة كعدم وجود أخ ذكر في الأسرة، أو في حالة كتابة قطعة أرض باسمها كمهر، أو في حالة وفاة الزوج، وكون الأطفال صغاراً. مع أن النساء لم تملك الأراضي، لكنها كانت تتمتع بحق استخدام الأرض والاستفادة من المنتوج.

لقد قامت النساء الأرامل بتحمل مسؤولية كبيرة، وقمن بالعمل لتوفير احتياجات أسرهن.

تناقض هذه الصورة، لحياة ونشاطات النساء الريفيات، مع ما جاء في الخطاب الاستعماري والاستشراقي من جهة، والخطاب الوطني للفئات المتوسطة والعليا من جهة أخرى.